الحكم الجديرة بالإذاعة

من قول النبي صلى الله عليه وسلم

"بُعِثْتُ بالسَّيفِ بَينَ يَدَيِ السَّاعَة"

للإمام المحقق زين الدين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

بإشراف

زهير الشاويش

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي

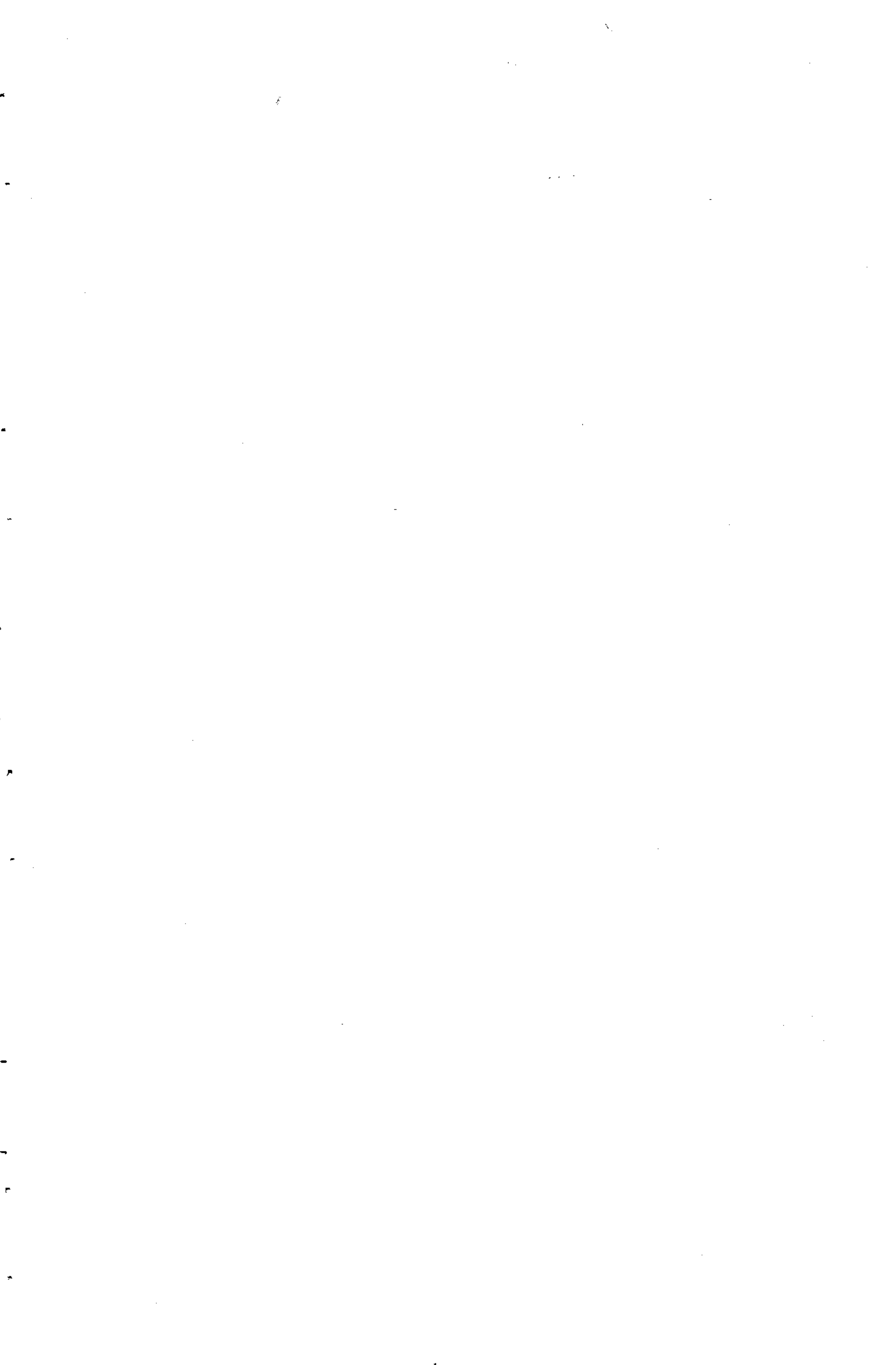
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيًا: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقيًا: اسلامي

الحِكَمُ الجَدِيرةُ بالإذاعَة

مِنْ قولِ النَّبي صلى الله عليهِ وسلم

"بُعِثْتُ بالسَّيفِ بينَ يدَيِ السَّاعة"



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له، وأشهد ان محمداً عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيا الى الله باذنه وسراجاً منيراً، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أخرج احمد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢٨٢٨)، و«إرواء الغليل في تخريج =

فقوله ﷺ « بعثت بالسيف » يعني ان الله بعثه داعيا الى توحيده بالسيف بعد دعائه بالحجة ، فمن لم يستجب الى التوحيد بالقرآن والحجة والبيان دعي بالسيف قال الله تعالى ﴿لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[1] .

وفي الكتب السالفة[2] : وصف النبي ﷺ بانه يبعث بقضيب الادب ، وهو السيف . ووصى بعض أحبار اليهود عند موته باتباعه وقال : انه يسفك الدماء ، ويسبي الذراري والنساء ، فلا يمنعهم ذلك منه . وروي ان المسيح عليه السلام قال لبني اسرائيل في وصف النبي ﷺ « انه يسل السيف فيدخلون في دينه طوعا وكرها » .

= أحاديث منار السبيل » (١٢٦٩) . طبع المكتب الاسلامي .

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٥ .

(٢) التوراة ، والانجيل ، والزبور . وصحف إبراهيم عليه السلام .

وانما أمر النبي ﷺ بالسيف بعد الهجرة لما صار له دار وأتباع وقوة ومنعة ، وقد كان يتهدد أعداءه بالسيف قبل الهجرة ، وكان ﷺ يطوف بالبيت وأشراف قريش قد اجتمعوا بالحِجر[1] وقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل ، قد سفه احلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم . فلما مر بهم النبي ﷺ غمزوه ببعض القول ، فعرف ذلك في وجهه ﷺ ، وفعلوا ذلك به ثلاث مرات ، فوقف وقال : «أتسمعون يا معشر قريش؟ اما والذي نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح »[2] فأخذت القوم كلمته ، حتى ما فيهم رجل إلا وكانما على رأسه طير واقع ، وحتى ان أشدهم عليه قبل ذلك ليلقاه بأحسن ما يجد من القول ، حتى انه ليقول : انصرف يا ابا القاسم راشداً ، فوالله ما كنت مجهولا .

وقال محمد بن كعب : بلغ النبي ﷺ ان أبا جهل

---

(١) هو القسم المسور بجانب الكعبة وهو منها ، والطواف لا يصح الا خارجه .

(٢) « مسند » الامام احمد ٢/٢١٨ ـ ٣٦٠ والنسائي .

يقول : ان محمداً يزعم أنكم ان ما بايعتموه عشتم ملوكا فاذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنان خير من جنان الاردن ، وأنكم ان خالفتموه كان لكم منه الذبح . ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون فيها ، فبلغ النبي ﷺ قوله ، فقال :« وانا أقول ذلك ان لهم مني لذبحا ، وانه لآخذهم » .

وقد أمر الله تعالى بالقتال في مواضع كثيرة ، قال تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾[1] وقال : ﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعدوإما فداء﴾[2] ولهذا عوتبوا على أخذ الفداء منهم في أول قتال قاتلوه يوم بدر ونزل قوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾[3] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٥ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٤ .

سورة الأنفال ، الآية ٦٧ .

وكانوا قد أشاروا على النبي ﷺ بأخذ الفداء من الأسارى واطلاقهم.

قال ابن عيينة: أرسل محمد ﷺ بأربعة سيوف[1]: سيف على المشركين من العرب حتى يسلموا، وسيف على المشركين من غيرهم حتى يسلموا أو يسترقوا أو يقادوا بهم، وسيف على أهل القبلة من أهل البغي.

وفيما ذكر نزاع بين العلماء، فان منهم من يجيز المفاداة والاسترقاق في العرب وغيرهم، وكذلك يجيز أخذ الجزية بين الكفار جميعهم، والذي يظهر ان في القرآن اربعة سيوف: سيف على المشركين حتى يسلموا او يؤسروا، فاما منّاً بعد وإما فداء وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة، وقد أمر الله بجهادهم والاغلاظ عليهم في سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الاحزاب وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية، وسيف على أهل البغي، وهو المذكور في سورة الحجرات. ولم يسل ﷺ هذا السيف في حياته، وانما سله علي رضي الله عنه في خلافته. وكان يقول: «أنا

---

(١) كذا وظاهر السياق (ثلاثة سيوف).

الذي علمت الناس قتال أهل القبله » .

وله ﷺ سيوف أخر ، منها: سيفه على أهل الردة وهو الذي قال فيه:« من بدل دينه فاقتلوه »[1] وقد سله ابو بكر الصديق رضي الله عنه من بعده في خلافته على من ارتد من قبائل العرب .

ومنها سيفه على المارقين، وهم أهل البدع كالخوارج . وقد ثبت عنه الامر بقتالهم مع اختلاف العلماء في كفرهم . وقد قاتلهم علي رضي الله عنه في خلافته مع قوله:« انهم ليسوا بكفار » .

وقد روي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق علي طائفة من الزنادقة ، فصوب ابن عباس قتلهم، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال علي:« ويح ابن عباس ، لبحاث عن الهنات » .



(١) عن ابن عباس ، « صحيح الجامع الصغير » (٦٠٠١) ، و« إرواء الغليل » (٢٤٧١) و« مشكاة المصابيح » (٣٥٣٣) .

﴿قوله﴾ ﷺ: «بين يدي الساعة» يعني امامها، ومراده انه بعث قدام الساعة قريبا منها. ومن أسمائه ﷺ الحاشر، والعاقب كما صح عنه ﷺ انه قال: «انا محمد واحمد، والماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، والعاقب الذي ليس بعدي نبي»(١)

وقد جعل الله انشقاق القمر من علامات اقتراب الساعة كما يقول تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾(٢) وكان انشقاقه بمكة قبل الهجرة.

وصح عنه ﷺ انه قال: «بعثت انا والساعة كهاتين»(٣) وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى، خرجاه في الصحيحين.

وخرج الامام احمد من حديث بريدة: «بعثت انا

---

(١) روي بلفظ مختلف في «صحيح الجامع الصغير» (١٤٨٦) و«مشكاة المصابيح» ٥٧٧.

(٢) سورة الفجر، الآية ١.

(٣) عن أنس وسهل بن سعد، «صحيح الجامع الصغير» (٢٨٢٦)، و«مشكاة المصابيح» (١٤٠٧ - ٥٥٠٩).

والساعة جميعا إن كادت لتسبقني[1]» وللترمذي « بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه لهذه - لأصبعيه السبابة والوسطى - ليس بينهما أصبع أخرى[2] » والصحيح انه يدل من ذلك على القرب من الساعة.

وكان قتادة يشير إلى ان المراد بينه وبين الساعة كمقدار فضل السبابة على الوسطى، وقد قيل: ان بينهما من الفضل مقدار نصف سبع، وأخذ من هذا ان بقاء أمته ألف سنة، وهو سبع الدنيا. وقد رجح ذلك ابن الجوزي والسهيلي وقال: إن لم يصح فيه الحديث المرفوع فقد صح عن ابن عباس وغيره، وهو عند أهل الكتاب كذلك.

ومما يدل على ان بعثة محمد ﷺ من علامات الساعة انه أخبر عن خروج الدجال في حديث الجساسة[3].

* * *

(١) مسند أحمد (٣٠٩/٤).
(٢) مشكاة المصابيح (٥٥١٣) - ضعيف الجامع الصغير (٢٣٣٨).
(٣) صحيح الجامع الصغير (٢٥٠٤).

قوله ﷺ: « حتى يعبد الله وحده لا شريك له » هذا هو المقصود الاعظم من بعثته ﷺ بل من بعثة الرسل من قبله كما قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1] وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[2] بل هذا هو المقصود من خلق الخلق وإيجادهم كما قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[3] فما خلقهم إلا ليأمرهم بعبادته، وأخذ عليهم العهد لما استخرجهم من صلب آدم على ذلك كما قال تعالى ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى، شهدنا﴾[4] الآية.

وقد تكاثرت الاحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة في تفسير هذه الآية أنه تعالى استنطقهم حينئذ،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٥ .
(٢) سورة النحل، الآية ٣٦ .
(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٧٢ وتمامها : ﴿أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنا عن هذا! غافلين﴾.

فأقروا كلهم بوحدانيته ، وأشهدهم على أنفسهم وأشهد عليهم أباهم آدم والملائكة .

ثم انه تعالى هداهم في كل زمان بارسال رسله وإنزال الكتب يذكرهم بالعهد الاول ، ويجدد عليهم العهد والميثاق على أن يوحدوه ويعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، واشار في خطاب آدم وحواء عند هبوطهما من الجنة إلى هذا المعنى في قوله تعالى :﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[1] وفي سورة طه نحو هذا . فما وفى بنو آدم كلهم بهذا العهد المأخوذ عليهم ، بل نقضه أكثرهم وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، فبعث الله الرسل تجدد ذلك العهد الاول وتدعوا إلى تجديد الاقرار بالوحدانية .

فكان أول رسول بعث إلى أهل الارض يدعوهم إلى التوحيد وينهاهم عن الشرك نوح عليه السلام ، فإن الشرك قد فشا في الارض من بني آدم قبل نوح

---

(١) سورة البقرة (٣٨ ـ ٣٩) .

فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم الى الله وإلى عبادته وحده لا شريك له ، كما ذكر سبحانه في سورة نوح عنه أنه قال لقومه:﴿اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾[١] وأخبر في موضع آخر عنه انه قال لهم: ﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾[٢] فما استجاب له إلا قليل منهم وأكثرهم أصروا على الشرك ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾[٣] فلما اصروا على كفرهم أغرقهم الله بالطوفان ونجا نوح ومن آمن معه ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾[٤] .

ثم ان الله تعالى بعث ابراهيم خليله عليه السلام فدعا إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وناظر على ذلك أحسن مناظرة ، وأبطل شبه المشركين بالبراهين الواضحة ، وكسر أصنام قومه حتى جعلهم

---

(١) سورة نوح ، الآية ٣ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٢٣ .
(٣) سورة نوح ، الآية ٢٣ .
(٤) سورة هود ، الآية ٤٠ .

جذاذاً[1] فأرادوا تحريقه فأنجاه الله من النار وجعلها عليه برداً وسلاماً ، ووهب الله له اسماعيل واسحاق ، فجعل عامة الانبياء من ذرية اسحاق ، فإن اسرائيل هو يعقوب بن اسحاق ، وأنبياء بني اسرائيل كلهم من ذرية يعقوب ، كيوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام . وآخرهم المسيح بن مريم عليه السلام . وانما دعا إلى التوحيد[2] كما قال تعالى : ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، ان اعبدوا الله ربي وربكم﴾[3] .

ثم طبق الشرك الارض بعد المسيح . فان قومه الذين ادعوا اتباعه بالايمان به أشركوا غاية الشرك فجعلوا المسيح هو الله أو ابن الله ، وجعلوا أمه ثالث ثلاثة

وأما اليهود فإنهم وإن تبرأوا من الشرك، فالشرك فيهم موجود ، فإنه كان فيهم من عبد العجل في حياة موسى عليه السلام وقال فيه : انه الله ، وان موسى نسي

---

(١) الجذ : القطع والاستئصال . والاسم الجذاذ .

(٢) وهذا هو المطلوب حتى اليوم أن تكون الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله أول الطريق .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .

ربه وذهب يطلبه ، ولا شرك أعظم من هذا . وطائفة قالوا : العزير ابن الله ، وهذا من أعظم الشرك . وأكثرهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك عبادتهم إياهم ، لأن من أطاع مخلوقا في معصية الخالق واعتقد جواز طاعته أو وجوبها فقد أشرك بهذا الاعتبار ، حيث جعل التحليل والتحريم لغير الله[1] .

وأما المجوس فشركهم ظاهر ، فانهم يقولون بإلهين قديمين (أحدهما) نور (والآخر) ظلمة ، فالنور خالق الخير ، والظلمة خالق الشر . وكانوا يعبدون النيران[2] .

وأما العرب والهند وغيرهم من الامم فكانوا أظهر الناس شركا يعبدون الله ، وآلهة كثيرة ويزعمون انها تقرب إلى الله زلفى .

---

(١) يشير الى حديث عدي بن حاتم حين قال له ﷺ: « فذلك عبادتهم إياهم » .
رواه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من طرق متعددة .
انظر « غاية المرام في تخريج احاديث الحلال والحرام » .

(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .

فلما طبق الشرك أقطار الارض ، واستطار شرره في الآفاق من المشرق إلى المغرب بعث الله محمداً ﷺ بالحنيفية المحضة والتوحيد الخالص دين ابراهيم عليه السلام ، وأمره أن يدعو الخلق كلهم الى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له . فكان يدعو سراً الى ذلك نحواً من ثلاث سنين ، فاستجاب له طائفة من الناس ، ثم أمر باعلان الدعوة واظهارها ، وقيل له : ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾[1] فدعا الى الله وإلى توحيده وعبادته وحده لا شريك له جهراً ، وأعلن الدعوة ، وذم الآلهة التي تعبد من دون الله ، وذم من عبدها وأخبر أنه من أهل النار ، فثار عليه المشركون ، واجتهدوا في إيصال الاذى اليه والى أتباعه ، وفي اطفاء نور الله الذي بعثه به ، وهو لا يزداد الا اعلانا بالدعوة وتصميما على اظهارها واشهارها والنداء بها في مجامع الناس .

وكان يخرج بنفسه في مواسم الحج الى من يقدم الى مكة من قبائل العرب فيعرض نفسه عليهم ، ويدعوهم

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩٤ .

الى التوحيد ، وهم لا يستجيبون له ، بل يردون عليه قوله ويسمعونه ما يكره ، وربما نالوه بالاذى . وبقي عشر سنين على ذلك يقول : « من يمنعني حتى أؤدي رسالات ربي ؟ »

وكان يشق أسواقهم بالمواسم وهم مزدحمون بها كسوق ذي المجاز ، ينادي: « يا أيها الناس قولوا : لا اله إلا الله تفلحوا » ووراءه أبو لهب يؤذيه ويرد عليه وينهي الناس عن اتباعه .

واجتمع المشركون مرة عند عمه أبي طالب يشكونه اليه ويقولون : شتم آلهتنا وسفه أحلامنا وسب آباءنا ، فمره فليكف عن آلهتنا . فقال أبو طالب للنبي ﷺ: أجب فيما سألوه . فقال « أنا أدعوهم الى خير من ذلك : أن يتكلموا كلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل : نعطيكها وعشر أمثالها قال: « تقولون لا اله الا الله » فنفروا عند ذلك وتفرقوا وهم يقولون : ﴿اجعل الآلهة الهاً واحداً؟ ان هذا لشيء عجاب﴾[1] وفي رواية انه ﷺ قال لعمه: « يا عم لو

---

(١) سورة ص ، الآية ٥ .

وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه »[1] .

قال ﷺ: « لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما أوذي أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون ـ من بين يوم وليلة ـ وما لي طعام يأكله ذو كبد الا شيء يواريه ابط بلال »[2] .

وفي رواية عنه ﷺ قال « ما أوذي أحد في الله ما أوذيت » .

كان العدو يجهد له في نيل الاذى ، والصديق يلوم على هذا الاحتمال اذا كان كذا ، والمحبة تقول: حبذا هذا الشقاء اذا كان في رضى الحبيب والدعوة الى التوحيد ، حبذا .

---

(١) هذا الحديث رواه ابن اسحاق في « المغازي » وفي « سيرة ابن هشام » ٢٨٤/١ وقد ضعفه شيخنا ناصر الدين الألباني في « الضعيفة » ٩٠٩ وذكر حديثاً آخر في معناه سنده حسن في « الصحيحة » برقم ٩٢ .

(٢) عن أنس « صحيح الجامع الصغير » (٥٠٠١) و« مشكاة المصابيح » (٥٢٥٣).

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة
حباً لذكرك فليلمني اللوم

ثم ان أبا طالب لما توفي[1] وتوفيت بعده خديجة اشتد المشركون على رسول الله ﷺ حتى اضطروه الى أن خرج من مكة الى الطائف ، فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له ، فلم يجيبوه وقابلوه بغاية الاذى وأمروه بالخروج من أرضهم ، وأغروا به سفهاءهم ، فاصطفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموه ، فخرج معه مولاه زيد بن حارثة فلم يمكنه دخول مكة الا بجوار وطلب من جماعة من رؤساء قريش أن يجيروه حتى يدخل مكة فلم يفعلوا حتى أجاره المطعم بن عدي ، فدخل في جواره ، وعاد الى ما كان عليه من الدعاء إلى توحيد الله وعبادته.

---

(١) كانت وفاته ووفاة خديجة (رضي الله عنها) في أسبوع واحد في أواخر السنة العاشرة من المبعث.

وكان يقف بالموسم على القبائل فيقول لهم قبيلة قبيلة: «يا بني فلان اني رسول الله اليكم: يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» وأبو لهب خلفه يقول: لا تطيعوه. وكان ﷺ ينادي «من يؤويني؟ من ينصرني؟ حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟»[1] فلا يجيبه احد حتى بعث له الانصار من المدينة فبايعوه.

هذا كله وهو صابر على الدعوة الى الله عز وجل على هذا الوجه، راض بما يحصل له فيها من الاذى، منشرح الصدر بذلك، غير متضجر منه ولا جزع. كان اذا اشتكى احد من اصحابه يقول: «اني عبد الله ولن يضيعني».

صرت لهم عبداً وما للعبد أن يعترضا
من لمريض لا يرى الا الطبيب المُمْرضا؟

وفي الصحيح عن عائشة قالت: قلت، يا رسول الله، هل مر عليك يوم كان أشد من يوم احد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ

---

(١) «مسند» أحمد ٣/٣٢٢ - ٣٢٩ - ٣٩٠.

عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أفق الا وأنا بقرْن الثعالب[1] فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فاذا فيها جبزيل فناداني فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال فناداني ملك الجبال فسلم علي ، ثم قال:ان الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك اليك لتأمرني بأمرك وما شئت ، إن شئت أن اطبق الاخشبين عليهم ، فقال له الرسول ﷺ : « بل ارجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »[2] .

---

(١) هو قرن المنازل والسيل ميقات أهل نجد ومن سلك طريقهم يطل على عرفات يبعد عن مكة ٩٤ كيلومتراً . والمواقيت لمن جاء بالبر ، أو حاذاها بالبحر ، وأما القادم بالجو ومن عرض البحر فإن موقته ـ على الأرجح ـ مكان نزوله في الميناء أو المطار .

(٢) « صحيح الجامع الصغير » (٥٠١٧) و«مشكاة المصابيح»(٥٨٤٨) .

ما مقصود الرسول ﷺ الا ان يعبد الله ولا يشرك به شيء ، وما يبالي ـ اذا حصل ذلك ـ ما اصابه في الدعوة اليه ، اذا وحد معبوده ، حصل مقصوده ، إذا عبد محبوبه ، حصل مطلوبه ، اذا ذكر ربه ، رضي قلبه ، وأما جسمه فما يبالي أصابه في سبيل ربه ما يؤلمه ، او يلائمه .

اذا كان سركم ما قد بليت به
فما لجرح اذا أرضاكم ألم
وحسب سلطان الهوى انه
يؤلف فيه كل ما يؤلم

وكان كلما آذاه الاعداء اذا دعاهم الى مولاهم رجع الى مولاه فتسلى بعلمه ونظره اليه وقربه منه ، واشتغل بمناجاته ، وذكره ودعائه وخدمته ، فنسي كل ما اصابه من الالم من اجله ، وقد أمره الله بذلك في القرآن في مواضع كثيرة نحو قوله تعالى ﴿واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم﴾[1] وقوله :﴿وسبِّح بحمد ربك

---

(١) سورة الطور ، الآية ٤٨ .

قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾[1] وقوله ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين[*] واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[2].

وكان ﷺ اذا حزبه امر قام الى الصلاة لان الصلاة صلة، وكان يقول: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3].

سروري من الدهر لقياكم
ودار سلامي مغناكم
وأنتم منتهى املي ما حييت
وما طاب عيشي لولاكم
اذا ازدحمت في فؤادي الهموم
أروح قلبي بذكراكم

---

(١) سورة ق، الآية ٣٩.
(٢) سورة الحجر، الآية ٩٨.
(٣) تتمة لحديث «حُبِّب إلي من دنياكم: النساء والطيب وجعلت...» عن أنس. صحيح الجامع الصغير (٣١١٩) ومشكاة المصابيح (٥٢٦١) وحبب لا تعني أحب.

فــلا تنسوا العهــد فــيما مضى
فلسنــا مــدى الــدهر ننساكم

فلم يزل ﷺ يدعو الى عبادة الله وحده لا شريك له حتى ظهر دين الله وأعلن ذكره وتوحيده في المشارق والمغارب ، وصارت كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر ، وتوحيده هو الشائع ، وصار الدين كله لله ، والطاعة كلها لله ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . فجعل ذلك علامة اقتراب اجله وأمر حينئذ بالتهيؤ للقاء الله والنقلة إلى دار البقاء .

وكان المعنى أن قد حصل المقصود من إرسالك ، وظهر توحيدي في أقطار الارض وزال منها ظلام الشرك ، وحصلت عبادتي ،وحدي لا شريك لي ، وصار الدين كله لي ، فأنا أستدعيك الى جواري لأجزيك أعظم الجزاء ﴿وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾[١] .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ٥ .

وفي صفته ﷺ في التوراة: «ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بان يقولوا لا إله الا الله وأفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفاً».

وكان ﷺ انما يقاتل على دخول الناس في التوحيد كما قال: «أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام»[1]

وكان اذا بعث سرية للغزو يوصي أميرهم بأن يدعو عدوه عند لقائهم إلى التوحيد، وكذلك أمر علي ابن أبي طالب حين بعثه لقتال أهل خيبر.

وروي عنه ﷺ انه كان اذا بعث بعثاً قال «تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الارض من اهل بيت مدر ولا وبر إلا ان تأتوني بهم مسلمين أحب إلي من ان تأتوني

---

(١) متواتر. صحيح الجامع الصغير (١٣٦٦). ومشكاة المصابيح (١٧٩٠).

بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم »

★ ★ ★

قولـه ﷺ « وجعل رزقي تحت ظل رمحي »[١]
اشارة إلى ان الله لم يبعثه بالسعي في طلب الدنيا ، ولا بجمعها واكتنازها ، ولا الاجتهاد في السعي في أسبابها وانما بعثه داعيا الى توحيده بالسيف ، ومن لازم ذلك ان يقتل أعداءه الممتنعين عن قبول دعوة التوحيد ، ويستبيح أموالهم ، ويسبي نساءهم وذراريهم ، فيكون رزقه مما أفاء الله من أموال أعدائه ، فان المال انما خلقه الله لبني آدم ليستعينوا به على طاعته وعبادته ، فمن استعان به على الكفر بالله والشرك به سلط الله عليه رسوله واتباعه فانتزعوه منه وأعادوه الى من هو أولى به من أهل عبادة الله وتوحيده وطاعته ، ولهذا يسمى الفيء لرجوعه الى من كان أحق به ولأجله خلق.

---

(١) قطعة من حديث مضى في الصفحة...(٥).

وكان في القرآن المنسوخ : ﴿انما أنزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾[1].

فأهل التوحيد والطاعة لله أحق بالمال من أهل الكفر به والشرك ، فلذلك سلط الله ورسوله وأتباعه على من كفر به وأشرك ، فانتزع أموالهم ، وجعل رزق رسوله من هذا المال لأنه أحل الاموال كما قال تعالى : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا﴾[2] وهذا مما خص الله به محمداً ﷺ وأمته فإنه أحل لهم الغنائم.

وقد قيل : ان الذي خصت بحله هذه الامة هو الغنيمة المأخوذة بالقتال دون الفيء ، والمأخوذ بغير قتال فإنه كان حلاً مباحاً لمن قبلنا وهو الذي جعل رزق رسوله منه ، وانما كان أحل من غيره لوجوه :

(منها) انه انتزاع مال لا يستحقه لئلا يستعين به

---

(١) أنظر «الناسخ والمنسوخ» لهبة الله بن سلامة ـ طبع المكتب الاسلامي ـ بتحقيقي مع الفاضل الشيخ محمد كنعان.

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٩.

على معصية الله والشرك به، فإذا انتزعه ممن لا يستعين به على غير طاعته وتوحيده والدعوة إلى عبادته كان ذلك أحب الاموال إلى الله وأطيب وجوه اكتسابها عنده.

(ومنها) انه كان ﷺ انما كان يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر لا لأجل الغنيمة فيحصل له الرزق تبعا لعبادته وجهاده في الله، فلا يكون فرغ وقتا من أوقاته لطلب الرزق محضا، وانما عبد الله في جميع أوقاته وحده فيها وأخلص له، فجعل الله له رزقه ميسراً في ضمن ذلك من غير ان يقصده ولا يسعى اليه. وجاء في حديث مرسل انه ﷺ قال: «أنا رسول الرحمة، وأنا رسول الملحمة، ان الله بعثني بالجهاد ولم يبعثني بالزرع»(١) وخرج البغوي في معجمه حديثا مرسلا «إن الله بعثني بالهدى ودين الحق ولم يجعلني زراعاً ولا تاجراً، ولا سخابا بالاسواق، وجعل رزقي في رمحي» وانما ذكر الرمح ولم يذكر السيف لئلا

(١) ضعيف الجامع الصغير (١٤١٥) و(١٥٨١).

يقال: انه ﷺ يرتزق من مال الغنيمة، انما كان يرزق مما أفاءه الله عليه من خيبر.

والفيء ما هرب أهله منه خوفا وتركوه، بخلاف الغنيمة فانها مأخوذة بالقتال بالسيف، وذكر الرمح أقرب إلى حصول الفيء لان الرمح يراه العدو من بعد فيهرب فيكون هرب العدو من ظل الرمح، والمأخوذة به هو مال الفيء، ومنه كان رزق النبي صلى الله عليه وسلم بخلاف الغنيمة فانها تحصل من قتال السيف. والله تعالى أعلم.

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله تعالى بعث محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا، فكان ﷺ شغله بطاعة الله والدعوة إلى التوحيد، وما يحصل في خلال ذلك من الاموال من الفيء والغنائم يحصل تبعاً لا قصداً أصليا، ولهذا ذم من ترك الجهاد واشتغل عنه باكتساب الاموال. وفي ذلك نزل قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[1] لما عزم الانصار على ترك الجهاد والاشتغال باصلاح أموالهم وأراضيهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

وفي الحديث الذي خرجه ابو داود وغيره «اذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه الله من رقابكم حتى تراجعوا دينكم»[1] ولهذا كره الصحابة رضي الله عنهم الدخول في أرض الخراج للزراعة فانها تشغل عن الجهاد.

وقال مكحول: إن المسلمين لما قدموا الشام ذكر لهم زرع الحولة، فزرعوا فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فبعث إلى زرعهم وقد ابيض وأدرك فحرقه بالنار، ثم كتب اليهم: إن الله جعل أرزاق هذه الامة في أسنة رماحها، وتحت أزجتها[2]، فاذا زرعوا كانوا كالناس. خرجه أسد بن موسى.

وروى البيضاوي باسناد له عن عمر انه كتب: من زرع زرعا واتبع أذناب البقر ورضي بذلك وأقر به

---

(١) «صحيح الجامع الصغير» (٤١٦) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة».

(٢) الأزوج: سرعة الشد. ويقال: فرس أزوج. وأزج في مشيته: أسرع.

جعلت عليه الجزية.

وقيل لبعضهم لو اتخذت مزرعة للعيال؟ فقال: والله ما جئنا زارعين، ولكن جئنا لنقتل أهل الزرع ونأكل زرعهم.

فأكمل حالات المؤمن أن يكون اشتغاله بطاعة الله والجهاد في سبيله، والدعوة إلى طاعته لا يطلب بذلك الدنيا، ويأخذ من مال الفيء قدر الكفاية، كما كان النبي ﷺ يأخذ لأهله قوت سنة من مال الفيء ثم يقسم باقيه، وربما رأى محتاجا بعد ذلك فيقسم عليه قوت أهله بلا شيء.

وكذلك من يشتغل بالعلم، لانه أحد نوعي الجهاد فيكون اشتغاله بالعلم للجهاد في سبيل الله والدعوة اليه، فليأخذ من أموال الفيء أو الوقوف[1] على العلم قدر الكفاية ليتقوى على جهاده، ولا ينبغي أن يأخذ أكثر من قدر كفايته من ذلك.

---

(١) جمع الأوقاف وهي الأموال المحبوسة العين...

وقد نص احمد على ان مال بيت المال كالخراج لا يؤخذ منه أكثر من الكفاية ، فمال الوقف أضيق .

ومن اشتغل بطاعة الله فقد تكفل الله برزقه ، كما في حديث زيد بن ثابت المرفوع « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة »[1] خرجه الامام احمد وابن ماجه .

وخرجه الترمذي من حديث أنس مرفوعا:« إن الله يقول:يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ، ولم أسد فقرك »[2]

وخرج ابن ماجه من حديث ابن مسعود مرفوعا « من جعل الهموم هما واحداً هم آخرته كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٦٣٨٦). و« سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٩٤٩ - ٩٥٠) و« مشكاة المصابيح » (٥٣٢٠ - ٥٣٢١).

(٢) صحيح الجامع الصغير (١٩١٠) وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٣٥٩).

أي أوديتها هلك »[1] وفي الآثار الاسرائيلية يقول الله: يا دنيا اخدمي من خدمني، واتبعي من خدمك.

* * *

﴿قوله﴾ ﷺ: « وجعل الذلة والصغار على من خالف امري » هذا يدل على أن العز والرفعة في الدنيا والآخرة بمتابعة أمر رسول الله ﷺ لامتثال متابعة أمر الله، قال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[2] وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[3] وقال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً﴾[4].

وفي بعض الآثار: يقول الله تعالى: « أنا العزيز فمن أراد العز فليطع العزيز »[5] قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم

(١) « صحيح الجامع الصغير » (٦٠٦٥) و« مشكاة المصابيح » (٢٦٣ - ٢٦٤).

(٢) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٣) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٤) سورة فاطر، الآية ١٠.

(٥) لم أعرف راوية. ومعناه صحيح.

عند الله أتقاكم﴾[1] فالذلة والصغار يحصل بمخالفة أمر الله ورسوله . ومخالفة الرسول على قسمين :

(أحدهما) مخالفة من لا يعتقد طاعة أمره كمخالفة الكفار ، وأهل الكتاب الذين لا يرون طاعة الرسول ، فهم تحت الذلة والصغار ، ولهذا أمر الله بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعلى اليهود الذلة والمسكنة لأن كفرهم بالرسول كفر عناد .

(والثاني) من اعتقد طاعته ثم يخالف أمره بالمعاصي التي يعتقد انها معصية فله نصيب من الذلة والصغار ، وقال الحسن : انهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين[2] فان ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله أن يذل إلا من عصاه ، كان الامام احمد يدعو : اللهم أعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية .
قال ابو العتاهية :

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .
(٢) الطقطقة . حكاية صوت الحجارة . والهملجة : نوع من المشية تمرن عليها الدواب للخيلاء .

ألا انمـــا التقوى هي العز والكرم

وحبـك للـدنيـا هو الـذل والسقم

وليس عـلى عبـد تقي نقيصـة

اذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم[1]

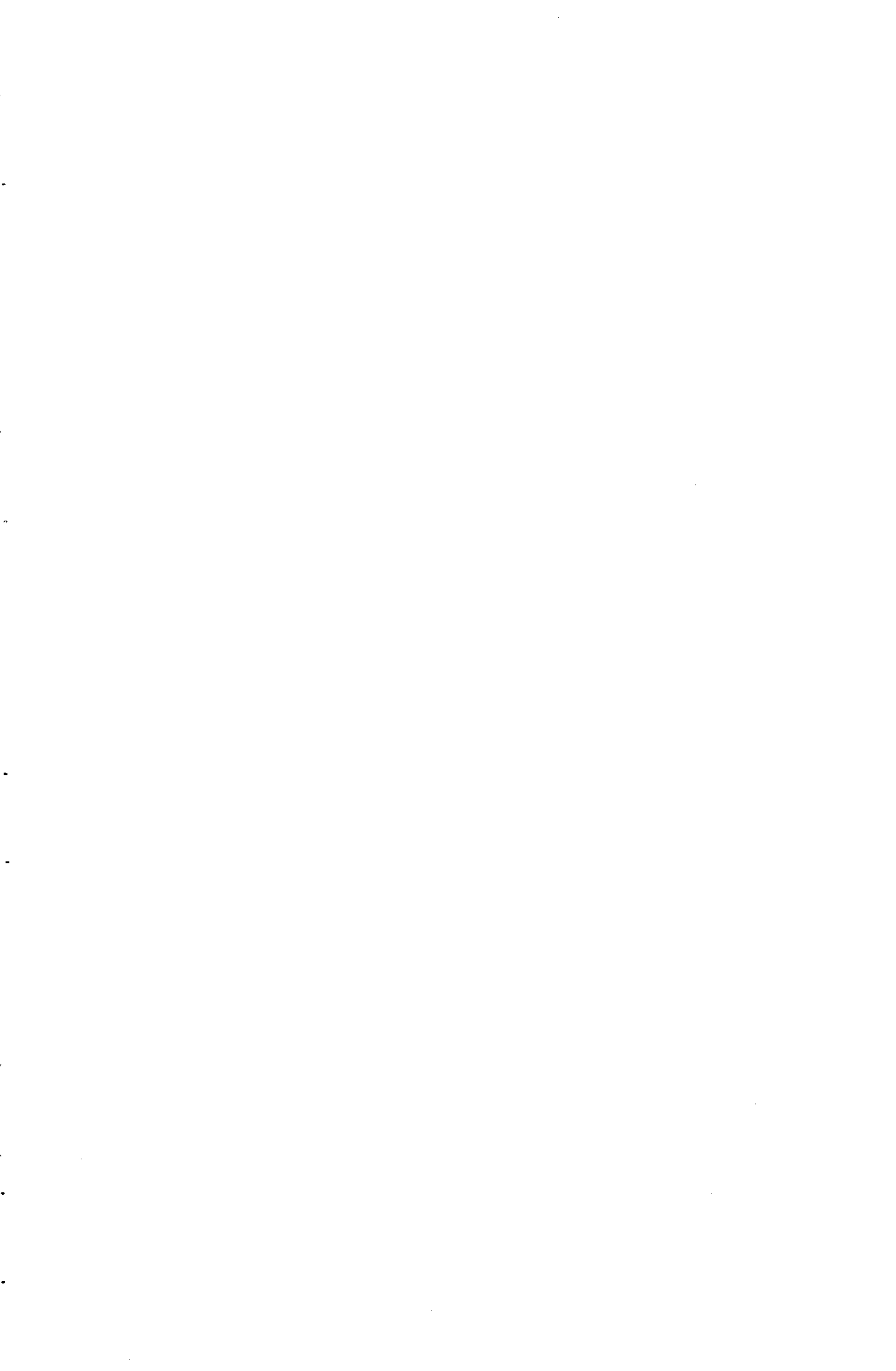
فأهل هذا النوع خالفوا الرسول من أجل داعي الشهوات .

---

(١) يبين المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذا أن الصناعة ما دامت مكسباً حلالاً ، فلا عيب فيها ولو كانت الحجامة أو الحياكة . . . ومثله شعر سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه :

لنقل الصخر من قلل الجبال ... أحـب إلى من مِنَنِ الرجـالِ

يقولون : كسب فيـه عـارٌ ... وأين العـارُ في كسب الحلالِ



(والنوع الثاني)[1]

من خالف أمره من أجل الشبهات وهم أهل الاهواء والبدع ، فكلهم لهم نصيب من الذلة والصغار بحسب مخالفتهم لاوامره ، قال تعالى :﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في

---

(١) لقد جمع المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الفصل الفرق الثلاث : الكفار ، وأهل الأهواء والبدع ، والمجتهدين الذين أخطأوا .

وليس وراء هذا التقسيم سوى أهل الحق والصواب ، وهم الذين يعملون بما ورد عن الله سبحانه وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بما وافق المطلوب منهم ، وهو أن يكون صواباً ـ باتباع الدليل ـ وخالصاً لله جل شأنه باخلاص النية .

وما كان وراء ذلك من الأقسام الثلاثة المتقدمة :

فالأول : كفر مردود على صاحبه .

والثاني : قد يغفر الله بعضه لصاحبه بالتوبة النصوح أو بفضله وكرمه .

والثالث : مأجور على خطأهِ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم عن المجتهدين : « إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » .

الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين﴾[1].

وأهـل الاهواء والبـدع كلهم مفـترون عـلى الله، وبدعتهم تتغلظ بحسب كثرة افترائهم عليه، وقد جعل الله من حرم ما أحله الله وحلل ما حرمه الله مفتريا عليه الكذب، فمن قال على الله ما لا يعلم فقد افترى عليه الكذب، ومن نسب إلى الله ما لا يجوز نسبته اليه من تمثيل أو تعطيل، أو كذب بأقداره فقد افترى على الله الكذب.

وقد قال الله عز وجل ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾[2] قال سفيان: الفتنة أن يطبع الله على قلوبهم.

فلهذا تغلظت عقوبة المبتدع على عقوبة العاصي لأن المبتدع مفتر على الله مخالف لأمر رسوله لا جل هواه.

فأما مخالفة بعض أوامر الرسول ﷺ خطأ من غير

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٢.

(٢) سورة النور، الآية ٦٣.

عمد ،مع الاجتهاد على متابعته ،فهذا يقع كثيراً من أعيان الامة من علمائها وصلحائها ،ولا اثم فيه ، بل صاحبه اذا اجتهد فله أجر على اجتهاده ،وخطأه موضوع عنه[1] ،ومع هذا فلا يمنع ذلك من علم أمر الرسول الذي خالفه هذا : أن يبين للامة ان هذا مخالف لأمر الرسول ، نصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، ولا يمنع ذلك من عظمة من خالف أمره خطأ ، وهب ان هذا المخالف عظيم له قدروجلالة ،وهو محبوب للمؤمنين إلا أن حق الرسول مقدم على حقه وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

فالواجب على كل من بلغه أمر الرسول وعرفه أن يبينه للامة وينصح لهم ، ويأمرهم باتباع أمره وإن خالف ذلك رأي عظيم من الامة ، فان امر رسول الله ﷺ أحق أن يعظم ويقتدى به من رأي معظم قد خالف أمره في بعض الاشياء خطأ .

---

(١) ومن العجيب أن أحد أتباع الهوى يحرم الاجتهاد ، ويخالف مذهبه الحنفي واجماع المجلس الفقهي والاجتهاد الجماعي ، ويقول بهذا .

ومن هنا رد الصحابة ومن بعدهم من العلماء على كل من خالف سنةصحيحة ،وربما أغلظوا في الرد ـ لا بغضاً له بل هو محبوب عندهم ، معظم في نفوسهم ـ لكن رسول الله ﷺ أحب اليهم ، وأمره فوق أمر كل مخلوق . فاذا تعارض أمر الرسول وأمر غيره فأمر الرسول ﷺ أولى أن يقدم ويتبع ، ولا يمنع من ذلك تعظيم من خالف أمره وإن كان مغفوراً له ، بل ذلك المخالف المغفور له لا يكره أن يخالف أمره إذا ظهر أمر الرسول ﷺ بخلافه ، بل يرضى بمخالفة أمره ومتابعة أمر الرسول ﷺ إذا ظهر أمره بخلافه . كما أوصى الشافعي : اذا صح الحديث في خلاف قوله:أن يتبع الحديث ويترك قوله . وكان يقول : ما ناظرت احداً فأحببت أن يخطىء ، وما ناظرت أحداً فباليت أظهر الحق على لسانه او على لساني . لان تناظرهم كان لظهور امر الله ورسوله لا لظهور نفوسهم والانتصار لها .

وكذلك المشايخ والعارفون كانوا يوصون بقبول الحق من كل من قال الحق صغيراً كان او كبيرا وينقادون لقوله .

وقيل لحاتم الأصم: أنت رجل عيي لا تفصح، وما ناظرت احدا الا قطعته، فبأي شيء تغلب خصمك؟ قال: بثلاث: أفرح اذا اصاب خصمي، وأحزن اذا أخطأ، وأحفظ لساني عن أن أقول له ما يسوءه. فذكر ذلك للامام أحمد فقال: ما كان أعقله من رجل.

وقد روي عن الامام أحمد أنه قيل له: أن عبد الوهاب الوراق ينكر كذا وكذا، فقال: لا نزال بخير ما دام فينا من ينكر. ومن هذا الباب قول عمر لمن قال له اتق الله يا أمير المؤمنين فقال «لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم».

وردت عليه امرأة مقالته فرجع اليها وقال «رجل أخطأ وامرأة أصابت»[1].

فلا يزال الناس بخير ما كان فيهم الحق وتبيين اوامر الرسول ﷺ التي يخطىء من خالفها وان كان معذوراً مجتهداً مغفوراً له، ولهذا مما خص الله به هذه الامة لحفظ دينها الذي بعث الله به رسوله ﷺ أن لا

---

(١) هو حديث ضعيف في جميع رواياته المختلفة الألفاظ «إرواء الغليل» ٦/٣٤٨.

تجتمع على ضلالة بخلاف الامم السالفة .

فههنا امران (احدهما):ان من خالف امر الرسول في شيء خطأ مع اجتهاده في طاعته ومتابعته أوامره فإنه مغفور له لا ينقص درجته بذلك (والثاني):انه لا يمنعنا تعظيمه ومحبته من تبيين مخالفة قوله لأمر الرسول ﷺ ونصيحة الامة بتبيين امر الرسول ﷺ ونفس ذلك الرجل المحبوب المعظم لو علم ان قوله مخالف لأمر الرسول فانه يحب من يبين للامة ذلك ويرشدهم الى امر الرسول ، ويردهم عن قوله في نفسه ، وهذه النكتة تخفى على كثير من الجهال لأسباب[1] .

وظنهم أن الرد على معظم من عالم وصالح تنقص به ، وليس كذلك ، وبسبب الغفلة عن ذلك تبدل دين أهل الكتاب فانهم اتبعوا زلات علمائهم ، وأعرضوا عما جاءت به انبياءهم ، حتى تبدل دينهم واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . فأحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فكانت تلك

---

(١) ولا يخفى أن أهم الأسباب «التقليد» و«التعصب الأعمى» و«حب الظهور» ثم ما ذكره من الخنوع والضعف .. الخ .

عبادتهم إياهم . فكان كلما كان فيهم رئيس كبير معظم مطاع عند الملوك قبل منه كل ما قال ، وتحمل الملوك الناس على قوله . وليس فيهم من يرد قوله ، ولا يبين مخالفته للدين .

وهذه الامة عصمها الله عن الاجتماع على ضلالة ، فلا بد أن يكون فيها من يبين امر الله ورسوله ، ولو اجتهدت الملوك على جمع الامة على خلافه لم يتم لهم أمرهم . كما جرى مع المأمون والمعتصم والواثق ، حيث اجتهدوا على إظهار القول بخلق القرآن وقتلوا الناس وضربوهم وحبسوهم على ذلك ، وأجابهم العلماء تقية وخوفا ، فأقام الله إمام المسلمين في وقتهم احمد بن حنبل ، فرد باطلهم حتى اضمحل أمرهم ، وصار الحق هو الظاهر في جميع بلاد الاسلام والسنة ، ولم يكن الامام احمد يحابي أحداً في مخالفة شيء من امر الرسول وإن دق . ولو عظم مخالفه في نفوس الخلق . فقد تكلم في بعض اعيان مشايخ العلم والدين لمسئلة أخطأها ، فحمل أمره حتى لما مات لم يصل عليه الا نحو اربعة أنفس[1]

---

(١) هو الحارث المحاسبي رحمه الله ، تكلم الإمام احمد وغيره عليه من أجل كتبه في التصوف .

وكان كلما تكلم في أحد سقط ، لان كلامه تعظيم لامر الله ورسوله لا لهوى نفسه .

ولقد كان بشر الحافي يقول لمن سأله عن مرضه : أحمد الله اليكم ، بي كذا وكذا . فقيل ذلك للامام احمد ، وقالوا : هو يبدأ بالحمد قبل ان يصف مرضه ، فقال احمد : سلوه عمن اخذ هذا ؟ - يعني ان كان هذا لم ينقل عن السلف فلا يقبل منه فقال بشر عندي فيه أثر ، ثم روى باسناده عن بعض السلف قال « من بدأ بالحمد قبل الشكوى لم تكتب عليه الشكوى » فبلغ ذلك الامام احمد فقبل قوله[1] .

وقد صح عن النبي ﷺ انه قال :« من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد »[2] فأمر الله ورسوله بالرد على من خالف امر الله ورسوله ، والرد على من خالف امر الله ورسوله لا يتلقى الا عمن عرف ما جاء به الرسول وخبره خبرة تامة . قال بعض الائمة : لا يؤخذ العلم الا عمن عرف بالطلب[3] .

---

(١) أي : حديثه .

(٢) صحيح الجامع الصغير (٦٢٧٤) ، و« ارواء الغليل » (٢٧٦) .

(٣) أي بطلب الحديث والسنة .

وأمر الرسول ﷺ نوعان: أمر ظاهر بعمل الجوارح، كالصلاة والصيام والحج والجهاد ونحو ذلك، وأمر باطن تقوم به القلوب، كالايمان بالله ومعرفته ومحبته وخشيته وإجلاله وتعظيمه والرضا بقضائه والصبر على بلائه، فهذا كله لا يؤخذ الا ممن عرف الكتاب والسنة، ومن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في علمنا، فمن تكلم على شيء من هذا مع جهله بما جاء به الرسول فهو داخل فيمن يفتري على الله الكذب، وفيمن يقول على الله ما لا يعلم، فان كان مع ذلك لا يقبل الحق ممن ينكر عليه باطله لمعرفته ما جاء به الرسول ﷺ بل ينتقص به وقال: انا وارث حال الرسول والعلماء وارثون علمه، فقد جمع هذا بين افتراء الكذب على الله، والتكذيب بالحق لما جاء به ﴿فمن اظلم ممن كذب على الله وكذّب بالصدق اذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾[1] فان هذا متكبر على الحق والانقياد له، منقاد لهواه وجهله، ضال مضل، وانما يرث حال الرسول من علم حاله، ثم اتبعه، فان من

---

(١) سورة الزمر، الآية ٣٢.

لا علم له بحاله فمن اين يكون وارثه[1]؟.

ومثل هذا لم يكن ظهر في زمن السلف الصالح حتى يجاهدوا فيه حق الجهاد وانما ظهر هذا في زمن قل فيه العلم وكثر فيه الجهل، ومع هذا فلا بد ان يقيم الله من يبين للأمة ضلاله، وله نصيب من الذل والصغار بحسب مخالفته لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

يا لله العجب، لو ادعى رجل معرفة صناعة من صنائع الدنيا ـ ولم يعرفه الناس بها، ولا شاهدوا عنده آلاتها ـ لكذبوه في دعواه ولم يأمنوه على أموالهم، ولم يمكنوه ان يعمل فيها ما يدعيه من تلك الصناعة، فكيف بمن يدعي معرفة امر الرسول وما شوهد قط يكتب علم الرسول ولا يجالس اهله ولا يدارسه؟ فلله العجب كيف يقبل اهل العقل دعواه، ويحكمونه في اديانهم يفسدها بدعواه الكاذبة؟.

إن كنـت تنوح يـا حمام البـان
للبـين، فـأين شاهـد الاحزان؟

---

(١) فالعلماء الورثة للأنبياء هم الذين عرفوا السنة.

اجفـــانــك للـــدموع ام اجفـــاني

لا يقبـــل مـــدع بـــلا برهـــان

ومن اعظم مـا حصـل بـه الـذل من مخالفـة امر الرسول ﷺ ترك ما كان عليه من جهاد اعداء الله فمن سلك سبيل الرسول ﷺ في الجهاد عز، ومن ترك الجهاد مع قدرته عليه ذل. وقد سبق حديث «إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم اذناب البقر وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه من رقابكم حتى تراجعوا دينـــكم»(١) ورأى النـــبي ﷺ سكـــة الحرث فقال «ما دخلت دار قوم إلا دخلها الذل» فمن ترك ما كان عليه النبي ﷺ من الجهاد مع قدرته واشتغل عنه بتحصيل الدنيا من وجوهها المباحة حصل له الذل فكيف اذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدنيا من وجوهها المحرمة؟.

قوله ﷺ «ومن تشبه بقوم فهو منهم»(٢) هذا يدل على أمرين.

---

(١) صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما في سنن أبي داود وغيره.

(٢) قطعة من حديث مضى صفحة ٥

(احدهما) التشبه باهل الشر مثل أهل الكفر والفسوق والعصيان وقد وبخ الله من تشبه بهم في شيء من قبائحهم فقال تعالى ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا﴾[1].

وقد نهى النبي ﷺ عن التشبه بالمشركين وأهل الكتاب، فنهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وعلل بانه «حينئذ يسجد لها الكفار» فيصير السجود في ذلك الوقت تشبها في الصورة الظاهرة، وقال ﷺ «إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[2] وفي رواية عنه ﷺ «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»[3] وقال ﷺ «خالفوا المشركين، اعفوا الشوارب واحفوا اللحى»[4] وفي رواية «جزوا

(١) سورة التوبة، الآية ٦٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير (١٩٩٤)، و«غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» ١٠٥.

(٣) صحيح الجامع الصغير (٤٠٤٣) والأحاديث الصحيحة (٨٧٦). و«تخريج المشكاة» ٤٤٥٥ - ٤٤٥٦ - ٤٤٥٧.

(٤) صحيح الجامع الصغير (٣٢٠٤)، «إرواء الغليل» ٧٧ و«تخريج المشكاة» (٤٤٢١).

الشوارب وارخوا اللحا ، خالفوا المجوس»[1] وأمر ﷺ بالصلاة في النعال مخالفة لأهل الكتاب . وروي عنه ﷺ أنه قال «ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود والنصارى ، فان تسليم اليهود الاشارة بالكف»[2] خرجه الترمذي ، ونهى ﷺ عن التشبه بهم في أعيادهم وقال عبد الله بن عمر: «من أقام بأرض المشركين يصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر يوم القيامة معهم» وقال الامام احمد : أكره حلق القفا ، وهو من فعل المجوس ، ومن تشبه بهم فهو منهم .

فالتشبه بالمشركين والمغضوب عليهم والضالين من أهل الكتاب منهي عنه ولا بد من وقوعه في هذه الامة كما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ حيث قال «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٣٠٨٧) وسلسلة الاحاديث الضعيفة (٢١٠٧).

(٢) صحيح الجامع الصغير (٥٣١٠) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (٢١٩٤) والمشكاة (٤٦٤٩).

حجر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال « فمن؟ »[1].

قال ابن عيينة: كان يقال من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

ووجه هذا أن الله ذم علماء اليهود بأكل السحت، وأكل الاموال بالباطل والصد عن سبيل الله، وبقتل النبيين بغير حق، وبقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وبالتكبر عن الحق وتركه عمداً خوفا من زوال المأكل والرياسات وبالحسد وبقسوة القلوب، وبكتمان الحق، وتلبيس الحق بالباطل، وكل هذه الخصال توجد في علماء السوء من أهل البدع ونحوهم. ولهذا تشبهت الرافضة باليهود في نحو من سبعين خصلة.

وأما النصارى فذمهم الله بالجهل والضلالة، وباللغو في الدين بغير الحق، ورفع المخلوق إلى درجة لا

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٤٩٣٩)، « تخريج السنة » (٧٢ - ٧٥) ومشكاة المصابيح (٥٣٦١).

يستحقها ، حتى يدعى فيه الالهية . واتباع الكبراء في التحليل والتحريم . وكل هذا يوجد في جهال المنتسبين إلى العبادة من هذه الامة .

فمنهم من يعبد بالجهل بغير العلم ، بل يذم العلم وأهله ، ومنهم من يغلو في بعض الشيوخ فيدعي فيه الحلول ، ومن يدعي الحلول المطلق والاتحاد ، ومنهم من يغلو فيمن يعتقده من الشيوخ كما يغلو النصارى في رهبانهم ويعتقدون ان لهم أن يغلو في الدين ما شاؤوا ، وأن من رضي عنه غفر له ، ولا يبالي بما عمل من عمل ، وأن محبتهم لا يضر معها ذنب .

وقد كان الشيوخ العارفون ينهون عن صحبة الاشرار ، وأن ينقطع العبد عن الله بصحبته الاخيار ، فمن صحب الاخيار بمجرد التعظيم لهم والغلو فيهم زائداً غلواً عن الحد وعلق قلبه بهم فقد انقطع عن الله بهم ، وانما المراد من صحبة الاخيار أن يوصلوا من صحبهم إلى الله ويسلكوا طريقه ويعلموه دينه .

وقد كان النبي ﷺ يحث أهله وأصحابه على التمسك بالطاعة ويقول «اشتروا أنفسكم من الله ، لا

أغني عنكم من الله شيئاً »[1] وقال لأهله :« إن أوليائي منكم المتقون يوم القيامة ، لا يأتي الناس بالاعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم فتقولون : يا محمد . فأقول : قد بلغت »[2] ولما سأله ربيعة الاسلمي مرافقته في الجنة قال « فاعني على نفسك بكثرة السجود »[3].

فانما يراد من صحبة الاخيار اصلاح الاعمال والاحوال والاقتداء بهم في ذلك ، والانتقال من الغفلة إلى اليقظة ، ومن البطالة إلى العمل ، ومن التخليط إلى التكسب والقول والفعل إلى الورع ، ومعرفة النفس وآفاتها واحتقارها ، فأما من صحبهم وافتخر بصحبتهم وادعى بذلك الدعاوى العريضة وهو مصر على غفلته وكسله وبطالته فهو منقطع عن الله من حيث ظن الوصول اليه ، كذلك المبالغة في تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الانبياء هو المنهي عنه .

وقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين رضي

---

(١) صحيح الجامع الصغير(٧٨٥٩).

(٢) رواه الامام احمد ٤/٢٣٥ وغيره « صحيح الجامع الصغير » ٢٠٠٨ .

(٣) قطعة من حديث رواه احمد ٤/٥٩ ومسلم وغيرهما .

الله عنهم يكرهون أن يطلب منهم الدعاء ويقولون «أأنبياء نحن؟ »فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلا للانبياء عليهم السلام، وكذلك التبرك بالآثار فانما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض ولا يفعله التابعون مع الصحابة، مع علو قدرهم.

فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ مثل التبرك بوضوئه وفضلاته وشعره وشرب فضل شرابه وطعامه.

وفي الجملة فهذه الاشياء فتنة للمعظِّم وللمعظَّم لما يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة. وربما يترقى إلى نوع من الشرك. كل هذا انما جاء من التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذي نهيت عنه هذه الامة. وفي الحديث الذي في السنن «ان من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، والسلطان المقسط، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه»[1] فالغلو من صفات النصارى،

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢١٩٥) ومشكاة المصابيح (٤٩٧٢).

والجفاء من صفات اليهود ، والقصد هو المأمور به .

وقد كان السلف الصالح ينهون عن تعظيمهم غاية النهي كأنس والثوري وأحمد . وكان أحمد يقول : من أنا حتى تجيئون إلي؟ اذهبوا اكتبوا الحديث ، وكان إذا سئل عن شيء ، يقول : سلوا العلماء . وإذا سئل عن شيء من الورع يقول : أنا لا يحل لي أن أتكلم في الورع ، لو كان بشر حياً تكلم في هذا .

وسئل مرة عن الاخلاص فقال : اذهب الى الزهاد ، أي شيء نحن حتى تجيء الينا؟ وجاء اليه رجل فمسح يده على ثيابه ومسح بهما وجهه ، فغضب الامام أحمد وأنكر ذلك اشد الانكار وقال : عمن أخذتم هذا الامر؟ .

(الثاني) التشبه بأهل الخير والتقوى والايمان والطاعة فهذا حسن مندوب اليه ، ولهذا يشرع الاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وآدابه وأخلاقه . وذلك مقتضى المحبة الصحيحة ، فإن المرء مع من أحب ، ولا بد من مشاركته في أصل عمله وان قصر المحب عن درجته .

قال الحسن لا تغتر بقولك : المرء مع من أحب ، ان من أحب قوما اتبع آثارهم ، ولن تلحق الابرار حتى تتبع آثارهم ، وتأخذ بهديهم ، وتقتدي بسنتهم ، وتمسي وتصبح وأنت على مناهجهم ، حريصاً أن تكون منهم ، وتسلك سبيلهم ، وتأخذ طريقتهم ، وإن كنت مقصراً في العمل . فان ملاك الامر أن تكون على استقامة . أما رأيت اليهود والنصارى وأهل الاهواء الردية يحبون انبياءهم وليسوا معهم لانهم خالفوهم في القول والعمل وسلكوا غير طريقهم فصار موردهم النار؟ نعوذ بالله من النار . كان يونس بن عبيد ينشد :

فانك من يعجبك لا تك مثله
إذا انت لم تصنع كما كان يصنع

وجاء في الحديث « ابكوا فإن لم تبكو فتباكوا »(١) .

فمن احب اهل الخير وتشبه بهم جهده فانه يلحق بهم كما في الحديث المشهور « من حفظ اربعين حديثا

---

(١) عند المرور على اماكن اهل العذاب في مدائن صالح والحديث اخرجه ابن ماجه في سننه باب الاقامة والزهد .

حشر يوم القيامة في زمرة العلماء »[1] ومن أحب أهل الطاعة والذكر - على وجه السنة - وجالسهم يغفر له معهم وإن لم يكن منهم « فانهم القوم لا يشقى بهم جليسهم »[2].

فأما التشبه بأهل الخير في الظاهر، والباطن لا يشبههم فهو بعيد منهم، وإنما القصد بالتشبه أن يقال عن المتشبه بهم انه منهم وليس منهم فهذا من خصال النفاق كما قال بعض السلف: « استعيذوا بالله من خشوع النفاق ان يرى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع ».

كان السلف يجتهدون في اعمال الخير ويعدون انفسهم من المقصرين المفرطين المذنبين، ونحن مع اساءتنا نعد انفسنا من المحسنين.

---

(١) ضعيف الجامع الصغير (٥٥٧٠) ومشكاةالمصابيح (٢٥٨)، وسلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٥٨٩). الحديث موضوع. مع ان بعض العلماء اخذ به ومنه كانت «الاربعينات» في الحديث التي لا تحصر!! وقول المؤلف (المشهور) لا يريد اصطلاح المحدثين.

(٢) انظر «صحيح الجامع الصغير» ٢١٦٩.

كان مالك بن دينار يقول: اذا ذكر الصالحون « أف ،أف لي ،وتف » وقال أيوب « اذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل » وقال يونس بن عبيد « أعد مائة خصلة من خصال الخير ليس فيَّ منها واحدة » وقال محمد بن واسع « لو ان للذنوب رائحة لم يستطع أحد أن يجلس إليّ » .

يا من اذا تشبه بالصالحين فهو عنهم متباعد ، واذا تشبه بالمذنبين فحاله وحالهم واحد ، يا من يسمع ما يلين الجوامد وطرفه جامد ، وقلبه أقسى من الجلامد ، يا من يرد قلبه عن التقوى ، كيف ينفع الضرب في حديد بارد؟ .

يـا نفس أنـى تؤفكينَ؟
حتى متى لا ترعوينَ؟
حتى متى ، لا تعقلينا
وتبصرين وتسمعينا؟
يا نفس إن لم تصلحي
فتشبهي بالصالحينا

آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

وافق الفراغ من نسخه يوم الاربعاء لتسع مضت من ربيع الثاني من شهور سنة ١٢٩٩ وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .